بين العقـــاد والرافعى

للأستاذ سيد قطب

— ٥ —

يقول العقاد فى قصيدة « خليج ستانلى » :

هذى معارض صـنعة لله تبهر من وصف
حى الجمـــال كما بدا أولا فدونك والجيف !

يقول هذا وهو يقف أمام هذه « المعارض » وقفة الفنان الحى ، المتذوق لكل صنوف الجمال فيها ، المتنبه لومضاته وخفقاته ، لا تكاد تعزب عن نظره ولا عن حسه لفتة من لفتات الجمال فى هذا الخضم العارى . ثم يسمع من ناحية أخرى صيحات « الخرف » التى لا تقدر هذه المعارض ، وتنحي باللائمة على بروز هذا الجمال ، فيصيح بهم : هذه معارض للجمال يتملاها الأحياء المعنيون بالحياة ، فمن شاءها فليحى الجمال فيها ، ومن أبى أن يعجب بالحياة الخافقة فليس له إلا أن يوكل نفسه بالجيف الهامدة !

ولكن « الرافعى » لا يلقى باله إلى شىء من هذه اللفتات ، فيأخذ منخره بين أصابعه ويزم شفتيه ، ويشيح برأسه ، ويروح يتصنع التأفف والمبالغة فيه ، لأن هناك رائحة لا يطيقها فى كلمة « الجيف ! »

طيب ! . ولا بد أن صاحبنا بلغ من إرهاف الحس — ولا سيما حاسة الشم — إلى درجة شديدة ، تقرب من الدائرة المرضية فالذين يبالغون فى التأفف كثيراً ما يكون الارهاق بلغ بهم إلى حد مرض الأعصاب ، وهو عذر على أية حال . ولا بد أنه متجنب فى أعماله الخاصة كل ما تنبعث منه أية رائحة !

ولكن ماذا عساك قائل ، إذا رأيت هذا الرجل الذى يمسك منخره بأصابعه ، لأن فناناً تهكم بخصوم الجمال ، فجعلهم ممن لا يحسنون إلا ملازمة الجيف ، إذا رأيته هو نفسه يصف فم حبيبته مستجملاً — وألق بالك إلى هذا — بأنه « حانة » !

أى والله ... « حانة » هى فم حبيبة « الرافعى » ، حانة ينبعث من روائحها ماينبعث ، ويفوح منها مايفوح ، ويعج بين جدرانها ما يعج . وفيها « من كل شىء » كما يفهم الرافعى وتلميذه الأستاذ شاكر . « من كل شىء » على حقيقتها وبمدلولها كما أولاه فى تعسف واستغلاق

وما أبعد بك فهذه قولته :

« مسكرة للعاشقين كأن نهر الخمر فى الجنة جعل فيها لهذا العاشق حانة »

ولعل أحداً من المتعسفين فى التأويل والتخريج ، حسب الأهواء والميول ، يروح يقول لك : يا لله ! إن نهر الخمر الذى فى الجنة هو الذى جعل فيها حانة . فهي حانة من خمر الجنة لا من خمر الدنيا !

ولكن أفما كان هناك ممدى عن هذا التعبير وهذا التشبيه ؟ ألا يمكن أن تكون مسكرة حتى يكون فيها حانة ، لا كأساً لطيفة ، ولا قارورة مختومة ، ولا دناً أو « برميلاً » من الخمر ؟ ولا يكون حانة كاملة بما فيها من الدنان والكؤوس والشاربين والندمان ، وبما فيها من عبث الشاربين وأنفاسهم وما يلى ذلك من عواقب السكر وصرعة الخمر

الذى لا يطيق أن يرى فنان خصوم الجمال بأنهم غير أحياء وأنهم موكلون بالجيف ، هو الذى يطيق أن يرمي حبيبته نفسه بأن فيها حانة بما فيها ؟ !

هوذلك. لأنه لاعقيدة فيما يكتب، فهو ينقد لشفاء الحزازات ويتلمس مواضع التشنيع التى لا سقطة فيهـا على الحقيقة ، وإن كان له هو على غرارها — مع الفارق — سقطات وسقطات !

* * *

ويقول العقاد متفكها ، فى فصل يسميه « فكاهة » ويعنون له بهذا العنوان

الأدباء ، فعلينا أن نبين مواضع الخطأ إذا أخطأ ، ومكان الصواب إن أصاب ، وذلك غاية مانستطيع

أما ما يوعدنا به الأستاذ الفاضل ، وما يسخر به ويتهكم ، ومايضمر لنامن (بقايا) كلماته !! فليقل فيه ما شاء كما يشاء، وسنرده على قدره وفى حد طاقتنا وآدابنا ، ولو اجتمع للأستاذ كل سلطان يستطيع به أن يسيء ، فأساء إلينا بمثل الذى أساء به إلى الرافعى رحمة الله عليه ، فنحن لا نزال — مع كل ذلك — نحترمه ... إذ ليس فى طاقتنا أن نفعل شيئاً إلا أن نحترمه كل الاحترام

محمود محمد شاكر

من رأى زهرة الجمال فهذى زهرة القبح أسفرت تتحدى
طلعة الشؤم من رآها يخلها خلقت من وجوه سبعين قردا!

فما يلمح الرافعي هـذا القول، حتى يغرق في ضحك مصطنع طويل؛ وهو يقول وما الفرق بين أن تكون طلعة الشؤم هذه خلقت من وجه قرد، أو من سبعين أو سبعمائة؟

والمسألة هنا ليست هكذا، فوجه القردليس كل ما فيه قبيحاً، فشدة الاحتياط في «الفكاهة» جعل العقاد «طلعة الشؤم» مؤلفة من القبح المستخلص من وجوه سبعين قردا، ليكون قبحا خالصا مركزا !!!

وهي على كل حال «فكاهة» والاغراق فيها يزيد حسن وقعها، ولا يعطل من قوتها شيئاً، وهو كل المقصود بالفكاهات.

أما الرافعي الذي يعيب ذلك فاسمعه يقول جاداً لا متهكما ولا متفكها. «وأصعب ما تكون الانسانية على من يعظم بحيوانيته وحسب، فتراه وكأن مئة حمار ركبت منه في حمار واحد، ولكنه حمار عظيم ...»

أرأيت إلى حمير الرافعي المائة، وعلمت ما شأنها هنا؟

إنها لمجرد المبالغة في شدة الحيوانية. والمبالغة في موضع الجد والقصد، لا في موضع الدعابة والنادرة

فلماذا يباح للرافعي في الحمير مالا يباح للعقاد في القرود؟ وهذه سبعون وتلك مائة. وهذه قرود تحمل الدعابة والخفة في اسمها وجسمها، وتلك — أعزك الله — حمير تحمل الغباء والثقلة في «صورتها ونعتها»؟

إنه التعنت، وشفاء الحزازات التي علمت سببها فيما أسلفت من حديث

* * *

وبعد فما أعني النقد بما أوردت من كلام الرافعي هذا، فمثله لا يعد نقداً، والذي يعني بهذه المآخذ لا يكون إلا سخيفاً؛ وإنما أردت فقط أن أصور هذا العنت الذي كان الرافعي يلج فيه وهو واقع في شرمته، وأن أبين كيف يصنع الحقد ببعض الناس، وكيف ينكشف «الذوق» المتصنع عن ثقلة وغفلة

وأحسب أنني حتى الآن قد أوضحت رأيي في الرافعي بالأمثلة الكافية كما وعدت في أول مقال. وبقى أن أوضح رأيي في العقاد على ذلك النحو

ولكني قبل هذا سألقى نظرة على ما كتب الأستاذ محمود محمد شاكر متقيداً في هذا بوعد أسلفته في الكلمة الفائتة، أكثر من اقتناعي بأن هناك ما يستأهل هذه النظرة

فلننظر ماذا قال؟

* * *

كنت في حاجة أن أستعير أسلوب العقاد في الرد على الرافعي وأمثاله، أواجه به الأستاذ شاكر، إذ كان الموقف لم يتغير. ولكني لحسن الحظ أهدأ من العقاد، وطبيعتي أقل حدة وضراما فلهذا كان أسلوبي هنا غير ما يحتاج إليه الموقف!

والأمر بيني وبين الأستاذ شاكر يمكن تقسيمه وتبويبه للاختصار

فهو «أولا» راح يطعنني في «حسن أدبي، ومروءة نفسي، ونبل قلبي، وشرف مقصدي، فيما كتبت. وراح يتهمني بمجانبة «الدين والتقوى، والحياء والتذمم». وبأنه ليس ما بي «هو النقد ولا الأدب، ولا تقدير أدب العقاد وشعره، فما هو إلا الانسان وجه يكشفه النور ويشف عما به، وباطن قد انطوى على ظلماته فما ينفذ في غيبه إلا علم الله»

وكل ذلك والأستاذ شاكر لا يعرفني، ولا يعرف شيئاً عن أدبي ولا نفسي أو قلبي، ولم تكن التهمة في فهم الأدب أو فهم الحياة، حتى يكون له مبرر في مجال النقاش الأدبي، وإنما هي تهمة خلقية محضة؛ وأنا إنما كان حديثي عن نفس الرافعي في أدبه فماذا كنت أصنع للأستاذ؟

أكنت أرد عليه شتائمه وأكيل له صاعاً بصاع؟ إذن فما أنا بخير الرجلين!

أكنت أنفي عن نفسي هذه التهم؟... لأنا إذن ظالم لنفسي فما هي مما يستحق النفي. وأنا أعرف نفسي ودوافعها في الحياة — وهذا حسبي — وهناك مئات يعرفونني معرفة الحقيقة والتقدير، وهنالك ألوف يعرفون بالقراءة وتقد… كلام مايجب أن يعرف، فما بي من حاجة بعد هذا كله إلى كلام

ولقد رددت على الأستاذ سيد العريان ماعرض بي من جهل بأدب الرافعي. ولم أرد على الأستاذ شاكر فيما عرض بـ من

شتائم خلقية ، إذ كان الأول بسبب من الموضوع الذى أتحدث فيه ، وإذ كان بينى وبينه من الصلات ما يبيح لى أن أتعتب عليه بشدة . فأما الأستاذ شاكر ، فلم يكن له عندى هذا ولا ذاك ، فتركته يقول :

على أنه ماذا يورد من حجة على انزلاقه إلى الطعون الشخصية الوبيلة ؟ إنه حديثى عن الرافعى الميت فى إبان ذكراه الأولى

ولقد لقينى أديب كبير بعد هذا ، فقال يتفكه : إن هؤلاء الجماعة يجلسون فى المأتم ويرجون المارة بالحجارة ، فاذا رجمهم الناس ، صاحوا وولولوا ، وملأوا الدنيا تسخطاً ونعياً على الأخلاق لأن الناس لا يقدرون حرمة المأتم ، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة !

ولقد كان ذلك فكاهة وحقاً !

فالمسألة أن الأستاذ سعيد العريان كان يكتب عن الرافعى ، حتى لقد بلغ رقم مقالاته السادس والعشرين ، فما رأيت ما يدعو أن أكتب أو أعلق ، فهو صديق وتلميذ يقوم بحق الوفاء ، وهو على هذا مشكور مبرور ؛ ولكنه بعد ذلك انحرف عن نهج المؤرخ إلى نهج الناقد ، فقال عن نقد الرافعى لوحى الأربعين إنه منزه عن العيوب ، وقال عن رد العقاد إنه سباب وشتائم ، فكان ذلك حكماً لا تاريخاً ؛ وقال عن دوافع العقاد للرد وطريقته كلاماً لا يصدق على العقاد ، ويخطئ تفسير دوافعه فى الحياة حسبما أرى ، وأنا بذلك أدرى

وعندئذ فقط تدخلت ، لأعيد إلى الأذهان شيئاً من النقد « المنزه عن العيوب » ولأفسر دوافع العقاد وخطته فى الحياة ، ولأبين الفوارق الأصيلة بين مدرسة العقاد ومدرسة الرافعى فى الأدب وفى الحياة

هكذا كان تدخلى ، وهو مفهوم ، ولم تكن هناك حاجة للتخمين والتأويل

* * *

وهو « ثانياً » شاء أن يدافع عن الرافعى ، وأن يثبت له ما نفيت عنه من الطبع والعقيدة فقال كلاماً لا أحسبنى قلت سواه فيما كتبت !

فهو قد قال : إنه كان للرافعى رأى فى أدب العقاد غير ما أبداه وإنما الملاحاة وحب الغيظ والكيد ، هى التى جعلته يقول ما قال .

وحكم على العقاد كذلك بما حكم به على الرافعى

فأما الشطر الأول فهو اعتراف يؤيد رأيى ، فى أن الرافعى لم يكن يصدر عن عقيدة فيما يكتب . وذلك حسبى

وأما الشطر الثانى فهو الذى أنكرته من قبل على الأستاذ سعيد ، وهو الذى لا زلت أنكره ؛ لأننى أعلم من حقيقة رأى العقاد فى الرافعى ، ما يؤكد نعته له ، ورده عليه . وما كان هذا الرأى ليختلف لو لم تقع بينهما جفوة وملاحاة ، إن صح أن التعبير عن هذا الرأى كان يمكن أن يتغير ، من لفظ قاس مكشوف ، إلى لفظ لين ملفوف

وليس العقاد هو الذى يبدى رأياً ويبطن آخر ، فهو رجل عقيدة يهمه التعبير عنها ، ولو لاقى فى ذلك كل عنت وملاحاة

هذا رأيى فى صاحبى ، لا زلت أنافح عنه ، وذلك رأيه فى صاحبه وهو به أعرف !

* * *

وهو « ثالثاً » أخذ نفسه بإبطال ما أوردت من نقد لنقد الرافعى . فلننظر ماذا قال

إنه راح يتقصى ماقيل فيما يقرب من قول العقاد :

فيك منى ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام

سائراً فى تقصيه على النسق الخالى من كتب النقد العربى لقدامة وأبى هلال العسكرى ، ومن ينقلان عنهما ... من تتبع المعنى تتبعاً زمنياً ، وحسبان كل شاعر متأخر أخذ هذا المعنى عن شاعر متقدم ، وزاد فيه أو نقص ، وتصرف أو ولد ... الخ

وليس هنا مجال انتقاد هذا المذهب فى النقد ، ولكنى أكتفى باثبات سوء رأيى فيه ، وظنى به القصور والجمود

إنما يهمنى ما قال الأستاذ من أن العقاد ذكر « من كل شىء » دون أن يضع للفظ المطلق شيئاً من الحواجز والحدود التى تمنع إرادة الاطلاق والتعميم ، فلم يبق إذن بد من أن يفهم الرافعى ، وأن يتابعه هو فى الفهم ، أن « من كل شىء » تشمل ما ذكر من قاذورات وأوحال

ويبدو لى أن الحواجز والحدود المقصودة لا يمكن أن تكون إلا من نوع الحواجز التى توضع للخيول والكلاب فى السباق ، أو الحبال والأسلاك الشائكة التى تصدم الجسم وتخز الملمس !

ويبدو لى كذلك أن « الذوق الانساني » الذى يمنع إرادة مثل تلك المقادير ، هو الأمر الوحيد الذى لا يحسب حسابه عند الرافعى وبعض متابعيه . وإلا فقد كان حسب الأستاذ أن يحيل حديث الرافعى فى هذا إلى ثورة حقده، وحبه للكيدة والاغاظة، فيخرج من تلك الأشواك التى ألقى بنفسه فيها دون حساب !

ثم ماذا ؟

ثم ذكرنى بشىء كنت قد نسيت الالمام به ، بعد ما التفت خاطرى إلى فساده وسوء دلالته على فهم الرافعى للأدب الحى . وذلك بقية ما كان قد عقب به على هذا البيت من أن أعرابياً قال وقال ... فجعل حبيبته «أصفى شىء ، وأغلى شىء ، وأسعد شىء»

هذا فى الواقع مفرق الطريق بين الرافعيين والعقاديين ؛ أو بين المدرسة القديمة والمدرسة الجديدة على الاطلاق . ولا بأس من توفية الكلام فيه بعض حقه ، وربما عدت إليه فى كلمة منفصلة أو فى ثنايا كلمات أخري

المبالغة عند المدرسة القديمة هى مناط البلاغة ، لا يستثنون من هذا إلا ما اعتبروه مغالاة ، تمس العرف أو الدين ، أو تناقض الحس والمشاهدة . والصدق الجميل هو مناط الاستحسان عند المدرسة الحديثة

فليس يهم الشاعر المجدد فى هذا العصر أو فى قديم الزمان ، أن يجمع فى حبيبته كل ما تفرقه الأوصاف فى الجميلات ، ولكن يهمه أن يصور محاسنها هى ، الخاصة بها ، وأن يعبر عن شخصيتها ومميزاتها كما هى فى نفسه

ومن هنا يختلف فى وصفه حبيبة عن حبيبته، لأنه لا يتحدث عن تمثال من الرخام ، ولكن عن إنسانة حية تعيش فى نفسه بميزات خاصة . هذه الميزات قد يكون بعض العيوب فيها أعز على نفسه من بعض المحاسن ، وأدعى لتعلقه بها ، كالوالد لا يحب أبناءه لهدوئهم وآدابهم وحدها ، وقد يكون الطفل المتعب أو الشاذ أكثر استمتاعاً بعطفه ، وقد يكون حبه لهم على حسب ما يذل مع كل منهم من جهد ، وما أنفق من علاج ، وتلك من أسرار النفس الانسانية

الصدق الجميل ، الذى يعبر عن الحقائق النفسية ، ويصور الحياة المتدافعة المتماوجة هو الذى أملى على العقاد ما كتب عن حبيبته ، لأنها كانت هكذا فى نفسه ؛ فما يهمه أن يختار لها أجود النعوت ، وأحسن الأوصاف ، بقدر ما يهمه تصويرها على حقيقتها فى نفسه

فمن شاء أن يلتمس المبالغة وجمع الصفات المستحسنة وحدها من كل ما يتخيل فيه الجمال ، فسبيله إلى ذلك شاعر آخر غير العقاد ، ممن لا يحبون بقلوبهم وأعصابهم ، بل بأذهانهم وأسماعهم. وهذا مفرق الطرق ، والرمز الذى لا يخطىء فى تمييز المدرستين

ثم شاء أن يتحدث عن قصة « قزح وقوسه » على مثال ما تحدث عن « من كل شىء » فلم يشأ أن يفهم ما فى هذه الدعابة من طرافة وحيوية ، لأن « قزحاً » هذا ليس « مشتهراً » بالجمال حتى تصلح المقابلة بينه وبين الجميلات

فهنا رجل يتصدى للنقد ، ولكنه يتوكأ على أحكام السلف ، فان وجد فيها أن قزحا مشهور بالجمال فذاك ، وإن لم يجده مشهورا فلا يمكن أن يكون جميلا ، ولا يستطيع هو أن يرى إن كان هكذا أو كان قبيحاً ، لأنه لا يستمد النقد مما يحس ويرى ، ولكن يستمده مما يقرأ ويحفظ

ومثل هذا لا نطمع أن يعاشى العقاد فى ذوقه وتفرده ، ولا أن يتابع كذلك شروحنا للعقاد وطريقته ، ولكنى سأتحدث لمن يشاء أن يستمع

إن العقاد فنان دقيق الحس فى تمييز الألوان والأضواء والظلال ، وفى نفسه غرام بالنور يجعله يلتفت أبدا لومضاته وخفقاته (وقد وفيت شرح هذا فى محاضرة لى عن وحى الأربعين عام ١٩٣٤ نشرت وقتها بالجهاد ، فليرجع إليها من شاء)

ومن هنا كان انتباهه لقوس قزح وألوانه وأطيافه ، وكان تشبيه « مطارف الحسان وطرفهن » بهذه الألوان والأطياف — التى زاحمن قزحاً عليها حتى ظفرن بها منه ، فألقى لهن بها وأدبر وانصرف ! ومن هنا كانت الطرافة والحيوية التى حسبنا الاشارة إليها تكفى أول مرة للفت النظر والفهم ، فأخطأنا التقدير

وقد فهم الأستاذ شاكر أننا نعنى بتلاعب الرافعى بالألفاظ ، أنه قال مرة إن قزحاً لا يفصل عن قوس ثم عاد ففصلها ! وما إلى شىء من هذا قصدت ، وما كان يمكن أن يفهم ما قلته على هذا الوجه . إنما عنيت بالتلاعب أن يترك الناقد هذه الطرافة فى الحس